فاطمية
خفايا
الرزق الفاطمي
إبراهيم الأنصاري البحراني
1445

بسم الله الرحمن الرحيم

الرزق الفاطمي

إلهام فاطمي

بما أنّها تمثّل جدّتها الصدّيقة الكبرى في هذا الجانب، أعني: واسطة نزول الفيوضات الربّانية والمعارف الحقّة الّتي هي الرزق الإلهي النازل من السماء؛ ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1]، لذلك بدأتُ في كتابة هذا البحث وأنا في حرمها الروحاني أنظر إلى ضريحها النوراني المشرق الّذي كاد سنا برقه يخطف أبصار الملائكة المقرّبين فضلًا عن الموكّلين.

من الجنّة إلى الدنيا

ليس بإمكاننا معرفة الصدّيقة الطاهرة – عليها آلاف التحيّة والسلام –، كيف وفيها سرّ مستودع غير مكشوف، كذلك لا يمكننا الوصول إلى معرفة تلك الأرزاق الّتي تنتشر من وجودها المقدّس الّتي تنشأ من الجنّة، فتشمل عالم التكوين جميعًا إلى أن تصل إلى الدنيا، وذلك في مجالين التكوين والتشريع، فتظهر في تسبيحاتها العظيمة عقب كلّ صلاة.

فينبغي إذن أن نتحدّث عن ذلك الرزق في قوس النزول وقوس الصعود بمقدار بضاعتنا المزجاة!

ولكي يتّضح لنا الأمر، ينبغي أن نتعرّف على «مفهوم الرزق في القرآن الكريم»، فنقول:

هذه الكلمة قد ذكرت في القرآن الكريم ١٢٣ مرّة في ١٠٩ آيات، وللحديث عن الرزق مفتاح وسرّ ينبغي التركيز عليه لتنفتح لنا الأبواب، وهذا المفتاح هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

ويعني أنه لا يوجد هناك ما يحاسب الإنسان أبدًا، بل يكون الرزق أكثر

١) الذاريات: ٢٢.
٢) آل عمران: ٣٧.

بكثير من سعي الإنسان، ذلك لأنّه تعالى ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[٣]، فليس هناك قانون يحدّد الرزق؛ لأنّ ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾[٤].

وقد ذكر الله «الرزق» في ستّة مواطن:

الأوّل: في عالم الدنيا.

الثاني: في عالم البرزخ.

الثالث: في الظهور والرجعة.

الرابع: في القيامة.

الخامس: في الجنّة.

الرزق في الدنيا

وسننطلق من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الّذي هو المفتاح كما قلنا.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهُ رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٥].

فلو قلنا بأنّ «الرزق» هو ما يحتاج إليه الإنسان من الأكل والشرب واللباس، فينبغي أن يذكر الله هنا مثالًا آخر، له علاقة بعائلة مستضعفة، أو بعاملٍ أتعب جسمه وأرهق نفسه في العمل الجسماني.

وأيُّ مناسبة بين ذلك وبين مريم العذراء عليها السلام الّتي كانت متفرّغة لعبادة الله عزّ وجلّ في المحراب، وهي غير محتاجة إلى الرزق المادّي إلّا بمقدار سدّ الرمق فقط، فقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ دالٌّ على أنّ الرزق

٣) الأنبياء: ٢٣.
٤) النحل: ٩٦.
٥) آل عمران: ٣٧.

هنا لم يمتّ بالمأكولات والمشروبات المادّية بصله، بل هو رزق معنويٌّ سماويٌّ قطعًا.

الجدير بالذكر:

أوّلًا: إن هذا الرزق كان مستمرًّا لا ينقطع، وكان ملازمًا للدخول في المحراب وللصلاة؛ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ﴾، فهناك علاقة بين هذا النمط الروحاني من الرزق وبين الصلاة الّتي هي معراج المؤمن.

ثانيًا: إنّه كان في مفاجأة لنبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام وهو متّصل بعالم الغيب! وهذا إن دلّ على شيء فيدلّ على أنّه كان أمرًا رفيعًا لم يحظى به زكريّا من قبل، فضلًا عن غيره من البشر.

ثالثًا: إنّ كلمة ﴿عِنْدِ اللهِ﴾ تدل على مقام عظيم، وهو ما يُطلق عليه «مقام العندّية»، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم بكثرة، وهذا المقام لا يتناسب مع الأكل والشرب المادّي المشترك بين الإنسان والحيوان.

رابعًا: إنّ لون هذا الرزق العظيم متناسق مع الولد الصالح، هذا ما فهمه زكريّا النبي عليه السلام، وكان يعلم النتيجة الّتي تتبع هذا الطعام الروحاني، وهي ولادة النبيّ عيسى عليه السلام، ولذلك يقول سبحانه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[٦]، أي في تلك الأجواء الروحانيّة الناتجة من نزول الرزق من السماء دعا زكريّا.

واللطيف أنه تعالى ترك قصّة مريم وعطف الكلام نحو زكريا في أربعة آيات متتالية، فتأمّل في ذلك.

والأعظم من ذلك تراه في الرزق الّذي رزق به الرسول الأكرم حين المعراج، وفي هذا المجال هناك أحاديث كثيرة نذكر ثلاثة منها:

الأوّل: عن الصادق جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «... فلمّا خلق الله عزّ وجلّ آدم وأخرجني من صلبه، أحبّ الله عزّ

٦) آل عمران: ٣٨.

وجلّ أن يخرجها [أي فاطمة] من صلبي، جعلها تفّاحة في الجنّة وأتاني بها جبرئيل فقال لي: السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا محمّد. قلت: وعليك السلام ورحمة الله حبيبي جبرئيل.

فقال: يا محمّد، إنّ ربّك يقرئك السلام. قلت: منه السلام وإليه يعود السلام.

قال: يا محمّد، إنّ هذه تفّاحة أهداها الله عزّ وجلّ إليك من الجنّة، فأخذتها وضممتها إلى صدري. قال: يا محمّد، يقول الله جلّ جلاله: كلْها، ففلقتها فرأيت نورًا ساطعًا ففزعت منه. فقال: يا محمّد، ما لك لا تأكل؟ كُلها ولا تَخَفْ؛ فإنّ ذلك النور المنصورة في السماء، وهي في الأرض فاطمة...»[7].

الثاني: عن ابن عبّاس، قال: كان رسول اللهﷺ يُكثِر القُبَلَ لفاطمةعليها السلام، فقالت له عائشة: يا نبيّ الله، إنّك لتكثر قبل فاطمة؟ فقال النبيّﷺ: «إنّ جبرئيلعليه السلام - ليلة أسري بي - أدخلني الجنّة وأطعمني من جميع ثمار الجنّة، فصار ماءً في صلبي، فواقعت خديجة، فحملت خديجة بفاطمة، فإذا اشتقت إلى تلك الثّمار قبّلت فاطمة، فأصبت من رائحتها قصم الثّمار الّتي أكلتها»[8].

الثالث: عن سعد بن مالك، قال: قال رسول اللهﷺ: «ليلةَ أُسرِيَ بي أتاني جبريلعليه السلام بسفرجلة من الجنّة فأكلتُها، فعلقت خديجة بفاطمة، فكنت إذا اشتقتُ إلى رائحة الجنّة شممتُ رقبة فاطمة»[9].

أقول:

إنّ الاختلاف في نوع الفاكهة - في الأحاديث الثلاثة - إن دلّ على شيء فيدلّ على أنّها ليست من فواكه الدنيا، بل هي فواكه روحانيّة من عالم الوحدانيّة، لا يسعنا نحن أهل الدنيا أن نَصِفَها، وفي الحديث عن الإمام الرضاعليه السلام يخاطب أبا الصَّلت الهروي: «يا أبا الصلت، إنّ شجرة الجنّة تحمل أنواعًا...»[10].

---

٧) معاني الأخبار، ص٣٩٦ ح٥٣.
٨) المناقب (لابن المغازلي)، ص٢٨٨ ح٤٠٦.
٩) المستدرك على الصحيحين، ج٥ ص٣٨٠ ح٤٧٩٩.
١٠) معاني الأخبار، ص١٢٤ ح١.

وقال الإمام﵀ في كتابه القيِّم شرح دعاء السحر: سمعت من أحد المشايخ من أرباب المعرفة - رضوان الله عليه - يقول: إنَّ في الجنّة شربةً من الماء فيها كلّ اللّذّات من المسموعات بفنونها من أنواع الموسيقى والألحان المختلفة، ومن المبصرات بأجمعها من أقسام لذّات الأوجه الحسان، وسائرها من الأشكال والألوان، ومن سائر الحواسّ على ذلك القياس حتّى الوقاعات وسائر الشهوات، كلٌّ يمتاز عن الآخر[11].

الرزق في البرزخ

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[12]، ولا شكّ أنّ الشهيد لا يحتاج إلى الطعام المادّي، كيف وهو قد ترك الدنيا وحلّق في السماوات العُلى!

وقوله تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ يدلّ على أنّ شغلهم الشاغل في عالم البرزخ هو هذا لا غير، ولا مهمّة لهم غير ذلك! فهل من المعقول أن يكون هذا الرزق مأكولًا ومشروبًا ماديًّا؟!

وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يدلّ على المقام الرفيع، أعني: «العنديّة».

نفس هذا التصوير بأنّ الإنسان يأكل الطعام المادّي - وباستمرار ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾[13] - تصويرٌ قبيح يشمأزّ منه، ولا يتناسب مع الإنسان بنحو عامّ فضلًا عن المؤمن، فهو صفة حيوانيّة كما ورد: ﴿...وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ

١١) شرح دعاء السحر (للإمام الخميني)، ص٢٩ - ٣٠.
١٢) آل عمران: ١٦٩.
١٣) يس: ٥٥.

وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[١٤]، وقد ورد في القرآن: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾[١٥]، فلا يقصد منه الطعام المادّي قطعًا.

الرزق في جنّة الظهور، وفي الرجعة

هناك آيات وأحاديث كثيرة تشرح لنا مواصفات تلك الجنّة النورانيّة الّتي عرضها عرض السماوات والأرض، ومنشأها الضياء المهدوي، الّذي ورد في كلام ثامن الحجج الإمام الرضا عليه السلام في توصيف الإمام المهدي - عجل الله فرجه -؛ حيث قال: «بأبي وأمّي، سميُّ جدّي، شبيهي وشبيهُ موسى بن عمران، عليه جيوبُ النور، تتوقّد بشعاع ضياءِ القُدس»[١٦].

دولته المباركة وإن كانت على الأرض إلّا أنّ القوانين السائدة فيها هي برزخيّة، فهي أوسع دائرة وأشمل إطارًا من القوانين المادّيّة الّتي تخيّم على هذه الدنيا، وفي تبيين تلك الجنّة استدلّ أمير المؤمنين عليه السلام بآية من القرآن؛ حيث قال: «قال الله تعالى في أهل الجنّة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[١٧]، والبُكرة والعَشيّ إنّما يكونان من الليل والنهار في جنّة الحياة قبل يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[١٨]»[١٩].

أقول: وهذه الآية الثانيّة بصدد بيان صفة جنّة الخلد، فتأمّل ولا تغفل.

وعليه ينبغي تفسير الآيات والأحاديث الكثيرة الّتي شرحت لنا صفات دولة الحقّ من البدو إلى رجعة أهل البيت:.

١٤) محمّد: ١٢.
١٥) يس: ٥٥.
١٦) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢ ص٧ ح١٤.
١٧) مريم: ٦٢.
١٨) الإنسان: ١٣.
١٩) بحار الأنوار، ج٦ ص٢٤٦ ح٧٦ عن تفسير النعماني.

ونحن نكتفي بآيتين فقط:

الأولى: في تفسير قوله تعالى: ﴿... قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢٠]، روي عن الإمام الباقر عليه السلام قصّة فاطمة عليها السلام تفصيلًا، وأنّه نزل عليها رزق من السماء في جفنة - أي: إناء - وعندما سُئلت قالت: ﴿... هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قال عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «... فأكلوا منها شهرًا، وهي الجفنة الّتي يأكل منها القائم عليه السلام، وهي عندنا»[٢١].

الثانية: قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[٢٢]، نقل عن ابن عبّاس أنّه قال: هو خروج المهدي عليه السلام[٢٣].

هذا، وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «طعام المؤمنين يومئذ التسبيح والتحميد والتهليل والتقديس والتكبير»[٢٤].

وعن أسماء ابنة زيد الأنصاريّة، سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله يقول: «يجزئ المؤمنين يومئذ من الجوع ما يجزئ أهل السماء من التسبيح والتقديس»[٢٥].

وعن ابن عمر، عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال المسلمون: فما طعام المؤمنين في زمان الدجّال؟ قال: «طعام الملائكة». قالوا: أَوَ تُطعَم الملائكة؟ قال: «طعامهم منطقهم بالتسبيح والتقديس، فمن كان منطقه يومئذ التسبيح والتقديس أذهب الله عنه الجوع، فلم يحسّ جوعًا»[٢٦].

---

٢٠) آل عمران: ٣٧.
٢١) تفسير العيّاشي، ج١ ص١٧١ ح٤١.
٢٢) الذاريات: ٢٢.
٢٣) الغيبة (للطوسي)، ص١٧٥.
٢٤) الفتن (لنعيم بن حمّاد)، ص٣٨٥.
٢٥) الفتن (لنعيم بن حمّاد)، ص٣٨٥.
٢٦) الفتن (لنعيم بن حمّاد)، ص٣٨٥.

الرزق في القيامة والجنّة

نكتفي بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢٧].

ليس هذا التعبير مجازيًّا، بل هو تعبير حقيقيّ وبالفعل هم متواجدون في جنة عالية؛ لأنّ عرصة القيامة ليست كأرض الدنيا ذي بُعدَين، بل هي ذات أبعاد ثلاثة، فارتفاع درجة الإنسان يدور مدار مستوى تقواه، فكلمّا زاد التقوى كان في درجةٍ أعلى.

وللشفاعة دور رئيس في الرقي ولا حدّ لها، بل هي من أجل تحقّق رضا الرسول صلى الله عليه وآله.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[٢٨]، قال: «رضا جدّي أن لا يبقى في النار موحّد»[٢٩].

وهذا - أعني: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ - هو نفس المفهوم المستفاد من قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، ولكنّه خاصّ لشفاعة الرسول صلى الله عليه وآله.

رزق معلوم

من أوضح الآيات الّتي تُبيّن لنا حقيقة الرزق في الجنّة الّذي هو جسمانيٌّ إلّا أنّ الصبغة المخيّمة عليه روحانيّ، هو قوله تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾[٣٠].

٢٧) البقرة: ٢١٢.
٢٨) الضحى: ٥.
٢٩) مجمع البيان ١٠: ٧٦٥.
٣٠) الصافّات: ٣٩ - ٤٢.

فعا ـة النـاس يجـزون بمقـدار عملهـم لا زيـادة فيـه ولا نقيصـة، إلّا المخلَصيـن مـن العبـاد، فهـم يرزقـون بغيـر حسـاب، وقـد بيّـن سـبحانه نوعيّـة الـرزق وصفاتـه فـي الآيـة؛ حيـث قـال: ﴿أُولَئِـكَ لَهُـمْ رِزْقٌ مَعْلُـومٌ﴾، فهـذا الـرزق مكتـوب فـي اللـوح المحفـوظ، لا يعلمـه إلّا الله تعالـى، وربّمـا المخلَصـون أيضًـا مطّلعـون عليـه بإذنـه تعالـى، وقـد تطـرّق سـبحانه إلـى هـذا الأمـر فـي قولـه: ﴿فَلَا تَعْلَـمُ نَفْـسٌ مـا أُخْفِـيَ لَهُـمْ مِـنْ قُـرةِ أَعْيُـنٍ﴾[31].

وهـذا الـرزق شـامل للطعـام والشـراب والسـكن والأصدقـاء والأهـل، كمـا تـدلّ علـى ذلـك الآيـات المتتاليـة فـي نفـس السـياق.

لاحـظ هنـا، يقـول: ﴿فَوَاكِهُ﴾، فهـل الفاكهـة بمـا هـي فاكهـة تُعَـدّ رزقًـا؟ كلّا! إنّ الشـأن كلّ الشـأن فـي قولـه: ﴿وَهُـمْ مُكْرَمُـونَ﴾، وهـذا الأمـر جعـل هـذه الفواكـه رزقًـا؛ حيـث أحاطتهـا صفـة الإكـرام مـن الكريـم المطلـق جـلّ وعلا.

كرّمنا بني آدم

دعونـي أدخـل فـي سـاحة الدنيـا قليـلًا ثـمّ أرجـع إلـى الجنّـة، وإن لـم يكـن هنـاك أيّ تبايـن بيـن السـاحتين كمـا مـرّ، ونسـتعين بكلمـة ﴿مُكْرَمُـونَ﴾ المشـتقّة مـن الإكـرام، ونتدبّـر فـي قولـه تعالـى: ﴿وَلَقَـدْ كَرَّمْنَـا بَـنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُـمْ فِـي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَرَزَقْنَاهُـمْ مِـنَ الطَّيِّبَـاتِ وَفَضَّلْنَاهُـمْ عَلَـى كَثِيـرٍ مِمَّـنْ خَلَقْنَـا تَفْضِيـلًا﴾[32].

أنّ الآيـة تبيّـن لنـا أنّ الـرزق فـي الدنيـا أي ـا هـو مـن آثـار الكرامـة الإلهيّـة لبنـي آدم خا ـة، وأنّ هـذا الأمـر هـو الّـذي فضّـل بنـي آدم علـى كثيـر مـن المخلوقـات لا جميعهـا.

والجديـر بالذكـر مـا ورد بعدهـا مباشـرة؛ حيـث قـال: ﴿يَـوْمَ نَدْعُـو كُلَّ أُنَـاسٍ بِإِمَامِهِـمْ فَمَـنْ أُوتِـيَ كِتَابَـهُ بِيَمِينِـهِ فَأُولَئِـكَ يَقْـرَءُونَ كِتَابَهُـمْ وَلَا يُظْلَمُـونَ فَتِيـلًا * وَمَـنْ كَانَ فِـي هَـذِهِ أَعْمَـى فَهُـوَ فِـي الْآخِـرَةِ أَعْمَـى وَأَضَـلُّ سَـبِيلًا﴾[33].

٣١) السجدة: ١٧.
٣٢) الإسراء: ٧٠.
٣٣) الإسراء: ٧١ – ٧٢.

روي عن يعقوب بن شعيب، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، فقال: «ندعو كلّ قرن من هذه الأمّة بإمامهم»[٣٤].

وعن الإمام الرضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، قال: «يدعى كلّ قوم بإمام زمانهم، وكتاب الله، وسنة نبيّهم»[٣٥].

في السماء رزقكم

على ضوئه نعلم ما يروم إليها قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[٣٦].

ورد في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا فرغ أحدكم من الصلاة فليرفع يديه إلى السماء ولينصب في الدعاء». فقال ابن سبأ: يا أمير المؤمنين، أليس الله عزّ وجلّ في كل مكان؟ قال: «بلى».

قال: فلم يرفع يديه إلى السماء؟ فقال: «أوَ ما تقرأ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، فمن أين يطلب الرزق إلّا من موضع الرزق، وموضع الرزق وما وعد الله السماء»[٣٧].

أقول: إنّ الرزق بالأصالة أمر سماوي روحاني، ولكن تارة يتجلّى في جسم مادّي من مأكول أو مشروب أو ولد صالح، وأخرى هو روحانيّ بحت، وقد ورد ذلك في أدعية كثيرة وزيارات المعصومين عليهم السلام، نكتفي بذكر بعض تلك الأرزاق:

٣٤) المحاسن (للبرقي)، ج١ ص١٤٤ ح٤٤.
٣٥) عيون أخبار الرضا، ج٢ ص٣٣ ح٦١.
٣٦) الذاريات: ٢٢ – ٢٨.
٣٧) علل الشرائع، ج٢ ص٣٤٤ ح١.

الشفاعة:

«وارزقني شفاعة محمّدﷺ»[٣٨]، «اللّهمّ ارزقني شفاعة الحسين يوم الوُرود»[٣٩].

الصفات:

«وارزقني شكرك وعافيتك وفضلك وكرامتك أبدًا ما أبقَيتَني»[٤٠]، وفي زيارة العسكريّين: «اللّهمّ ارزقني حُبَّهما، وتوفّني على ملّتهما»[٤١].

رؤية الإمام ومرافقته:

«وارزقني رؤية قائم آل محمّد»[٤٢]، «وارزقنا مُرافَقَتَه وسابقَتَه»[٤٣].

الزيارة:

وهو أهمّ رزق من الأرزاق السماويّة، ولذلك هنا تأكيد شديد على ذلك، تقول: «لا تجعله آخر العهد من زيارتي إيّاه ... فارزقني العود إليه، ثمّ العود إليه بعد العود»[٤٤].

تعريف الرزق

بما أن الرزق نازل من السماء، فكلّ ما هو يفيض على الخلق ينتشر من خلال محمّد وآل محمّدعليهم السلام، لأنّهم أوّل وأفضل ما خلق الله تعالى، وقد ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «وبكم ينزِّل الغيث»[٤٥]، وفي دعاء العديلة: «بيُمنه رُزق الورى، وبوجوده ثبتت الأرض والسماء»[٤٦].

٣٨) المصباح (للكفعمي)، ص١٢٤.
٣٩) كامل الزيارات، ص١٧٩.
٤٠) مصباح المتهجّد، ج١ ص٨٥.
٤١) كامل الزيارات، ص٣١٤.
٤٢) مهج الدعوات، ص١٦.
٤٣) مصباح المتهجّد، ج٢ ص٨٢٧.
٤٤) كامل الزيارات، ص٢٥٥.
٤٥) من لا يحضره الفقيه، ج٢ ص٦١٥.
٤٦) زاد المعاد، ص٤٢٣.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾[٤٧]، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «هم المعصومون المطهّرون الّذين لا يذنبون ولا يعصون، وهم المؤيّدون الموفّقون المسدّدون، بهم يرزق الله عباده، وبهم تُعمَر بلاده، وبهم يُنزِل القطر من السماء، وبهم يُخرِج بركات الارض»[٤٨].

إذن يمكننا أن نعرف الأرزاق بأنّها:

هي جريانات إلهيّة تجرى على المخلوقات من خلال أهل البيت عليهم السلام كما شوهد في جنّة آدم؛ حيث لا جوع ولا عطش.

فالارتزاق يعني: الاستفادة من المواهب الإلهيّة النازلة من الإمام المعصوم. فنفس أنّك تعلم بأنّ الإمام المعصوم ينظر إليك ويتوجّه إليك، فهذا هو رزقك الحقيقي.

ألا ترى أنّنا عندما نزور سيّد الشهداء عليه السلام - رغم تواجدنا في مسكن ذي مستوى رفيع رفاهيًّا يشتمل على غرف جميلة وأطعمة وأشربة ما يشتهيها الإنسان نقول عند الرجوع:

«الحمد لله الّذي رزقنا زيارة سيّد الشهداء عليه السلام»، ولا نتحدّث عن الأكل والشرب وغيرهما أبدًا إلّا هامشيًّا.

مفهوم التسبيح

كلّنا نعلم معنى كلمة «سباحة»، نقول: سبحت في النهر أو البحر، وهذا المفهوم يشمل غير الإنسان أيضًا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٤٩].

٤٧) النساء: ٥٩.
٤٨) علل الشرائع، ج١ ص١٢٣ - ١٢٤.
٤٩) الأنبياء: ٣٣.

وفي الحقيقة «التسبيح» يعني: الغور في بحر النور، وإبعاد كلّ ما سواه من الظلمات، ليتسنى للمسبِّح أن يتقدّم إلى الأمام، ومن هنا قالوا: بأنّ «التسبيح» يعني: تنزيه الله من الصفات غير المتلائمة له.

المخلَصون

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[٥٠].

فالمخلصون هم أهل البيت عليهم السلام، وأيضًا عدد من الأنبياء على مقدّمتهم أولوا العزم من الرسل.

لاحظ كلام إبليس اللعين في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾[٥١].

هنا سؤال يطرح نفسه وهو: هل آدم عليه السلام يُعَدّ من ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾؟

أقول: حسب ظاهر القرآن الكريم، وإن كان النبيّ آدم عليه السلام من المصطَفين الأبرار، إلّا هذه الصفة لا تنطبق عليه، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[٥٢].

فكلمة «غوى» تُخرجه عن ساحة «المخلَصين».

وقد فسّر الإمام قدّس سرّه «الغواية» هنا بقوله: ما كانت متوقّعة من مثل آدم الّذي كان صفيّ الله والمخصوص بالقرب والفناء الذاتي، ولهذا أعلن الذات المقدّسة وأذاع بمقتضى الغيرة الحبيّة عصيانه وغوايته في جميع العوالم وعلى لسان الأنبياء عليهم السلام، وقال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[٥٣].

٥٠) الصافّات: ١٥٩ – ١٦٠.
٥١) سورة ص: ٨٢ – ٨٣.
٥٢) طه: ١٢٠ – ١٢١.
٥٣) آداب الصلاة، ج١ ص٧١.

أقول: القدر المتيقن من الموصوفين بالمخلَصين في قوله تعالى: ﴿إِلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[٥٤] هم أهل البيت عليهم السلام، وقد ورد في تفسير الإمام العسكري عليه السلام: «... قال عليّ بن الحسين عليه السلام: أوَ لا أنبئكم بما هو أبلغ في قضاء الحقوق من ذلك؟ قالوا: بلى يا ابن رسول الله.

قال: أفضل من ذلك أن تجدّدوا على أنفسكم ذكر توحيد الله والشهادة به، وذكر محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله والشهادة له بأنّه سيّد النبيّين، وذكر عليّ عليه السلام وليّ الله والشهادة له بأنّه سيّد الوصيّين، وذكر الأئمّة الطاهرين من آل محمّد الطيّبين بأنّهم عباد الله المخلَصين»[٥٥].

كما أنّ آية التطهير أيضًا خير دليل على ذلك، فتدبّر في قوله: ﴿تَطْهِيرًا﴾.

المسبّحون

هذا، وقد نزل في شأنهم عليهم السلام قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[٥٦].

فقد ورد في كتاب تأويل الآيات، نقلًا عن تفسير ابن الماهيار، بإسناده عن عليّ عليه السلام قال في بعض خطبته: «إنّا آل محمّد كنّا أنوارًا حول العرش فأمرَنا اللهُ بالتسبيح فسبّحنا فسبّحت الملائكةُ بتسبيحنا، ثمّ أهبَطَنا إلى الأرض فأمرَنا الله بالتسبيح فسبّحنا فسبّحت أهل الأرض بتسبيحنا، فـ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾»[٥٧].

ولو تأمّلت في الآيات الّتي قبلها والآيات الّتي بعدها لأذعنت بهذا التفسير، فتدبّر.

٥٤) الصافّات: ١٦٠.
٥٥) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ع، ص٦٠٨ – ٦٠٩.
٥٦) الصافّات: ١٦٥ – ١٦٦.
٥٧) تأويل الآيات الظاهرة: ٤٨٨.

ولا بدّ أن أذكر القرّاء بأنّ قوله: «أهبَطَنا» هنا لا يعني الهبوط الّذي ابتلِيَ به آدم وبنوه، بل المقصود هو المعنى اللغوي، وقد بيّنّا السرّ في ذلك في كتبنا الأخرى، فراجع.

وأيضًا: ورد في إرشاد القلوب عن محمّد بن زياد، قال: سأل ابنُ مهران عبدَ الله بن عبّاس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾.

قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فأقبل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلمّا رآه النبيّ المكرم تبسّم في وجهه وقال: «مرحبا بمن خلقه الله تبارك وتعالى قبل كلّ شيء، خلقني الله وعليًّا قبل أن يخلق آدم بأربعين ألف عام». فقلت: يا رسول الله، كان الابن قبل الأب؟!

فقال: «نعم، إنّ الله تبارك وتعالى خلقني وخلق عليًّا قبل أن يخلق آدم بهذه المدّة، وخلق نورًا فقسّمه نصفين: خلقني من نصف وخلق عليًّا من النصف الآخر قبل الأشياء، فنورها من نوري ونور عليّ، ثمّ جعلنا عن يمين العرش، ثمّ خلق الملائكة فسبّحنا وسبّحت الملائكة، وهلّلنا وهلّلت الملائكة، وكبّرنا وكبّرت الملائكة، وكان ذلك من تعليمي وتعليم عليّ عليه السلام...»[٥٨].

حقيقة التسبيح

فلنرجع إلى ما قدّمنا من معنى «التسبيح»، فأقول:

في الحقيقة أهل البيت عليهم السلام بتسبيحهم يبعدون الحجب الّتي هي موانع وسدود تمنع الملائكة والإنسان من التقدّم إلى الأمام، ومن ثمّ الارتفاع إلى الأعلى.

وبعبارة أخرى هم عليهم السلام بتسبيحهم يبعدون غياهب الظلمات المتراكمة؛ لكي ينفتح طريق الرشد والهداية، ويجري النور إلى الأمام، ومن ثمّ إلى الأعلى.

٥٨) إرشاد القلوب، ج٢ ص٤٠٤ – ٤٠٥.

ومن هذا النور قد تنوّرت الأشياء، أي: وُجدت كما مرّ في الحديث: «...قبل الأشياء فنورها من نوري ونور عليّ»، ولكن الأهمّ والأبرز هي تلك الأرزاق المعنويّة الروحانيّة المتمثّلة في:

* المعارف الربانيّة.
* والأخلاق الحسنة.
* والمواقف الحقّة، أي: الأعمال.

جريان النور

سنبيّن لك كيفيّة جريان النور من العرش إلى الدنيا، ودور الزهراء عليها السلام وتسبيحها في شقّ الظلمات في العوالم والنشئات حيث يجري النور من الملكوت الأعلى إلى دار الدنيا.

ونؤكّد أنّ هذا الأمر بالأصالة منسوب إلى الله عزّ وجلّ؛ لأنّ ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾[٥٩]، ويُنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بالتبع والعَرَض، وأيضًا ينسب إلى الكتاب: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٦٠]، بل ينسب إلى المؤمنين كما سيتّضح لك في بيان سرّ التسبيحات الفاطميّة.

قوس النزول والصعود

كما أنّ كتاب الله هو القرآن النازل، والدعاء هو القرآن الصاعد - على حدّ تعبير الإمام الراحل قدّس سرّه؛ لأنّه انعكاس للقرآن وتصعيدٌ له إلى حيث جاء - كذلك الحال في الصلاة وتسبيح الزهراء عليها السلام على مستوى أدقّ وألطف وأخصر!

٥٩) البقرة: ٢٥٧.
٦٠) الحديد: ٩.

وهـذا ينطبـق علـى أهـل البيـت عليهم السلام حيـن تسـبيحهم وفتحهـم الطريـق لنـزول الأنـوار وجريانهـا في العوالـم مـن العـرش إلـى الدنيـا وأيضًـا في النشـئات، ومـن ثـمّ الأخـذ بأيدينـا وإرجاعنـا إلـى حيـث كنّـا؛ ﴿إنّـا للـه وإنّـا إليـه راجعـون﴾، «قـوس النـزول والصعـود».

ولا بـدّ مـن التذكيـر بـأنّ هـذه المرحلـة تتمحـور علـى الصدّيقـة الطاهـرة، الحـوراء الإنسـيّة، الكوثـر، جنّـة الفـردوس، حبيبـة اللـه ورسـوله فاطمـة الزهـراء عليها السلام كمـا سـيأتي.

التسبيحات الأربعة

مـن الضـروريّ أن نتعمّـق أكثـر فـي حقيقـة التسـبيحات والعلاقـة بينهـا، ومـن ثـمّ العلاقـة بيـن التسـبيحات الأربعـة فـي الـصلاة والتسـبيحات الثلاثـة بعـد الـصلاة؛ لأنّ ذلـك سـوف يعـزّز مـا بيّنّـاه مـن اكتمـال الدائـرة بهمـا، فنقـول:

توضيح وشرح:

للتسبيحات أربعة أركان، وهي بعينها أركان العرش أو قوائم العرش:

الأوّل: التسـبيح: وهـو الحصـن الحصيـن الّـذي مـن خلالـه ينفتـح لنـا طريـق النـور؛ حيـث نشـاهد فـي التسـبيح النـورَ المنـزّه عـن كافّـة النواقـص والشـوائب والكثرات، وهـذا تلقائيًّـا يجرّنـا إلـى:

الثانـي: التحميـد: بمـا أنّنـا مـن خلال التسـبيح نزحنـا الظلمـات ونزّهنـا الـذات، فبطبيعـة الحـال لا نشـاهد أمامنـا إلّا الجمـال المطلـق فنُحصـر الحمـد لـه ونقـول: «الحمـد للـه»، وحينئـذٍ نُـدرك حقيقـة قولـه تعالـى: ﴿هُـوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِـرُ وَالظَّاهِـرُ وَالْبَاطِـنُ﴾[٦١]، وقولـه: ﴿وَلَكِـنَّ اللـهَ رَمَـى﴾[٦٢]، وعشـرات مـن الآيـات العرفانيّـة، وبذلـك سـوف ننتقـل إلـى:

٦١) الحديد: ٣.
٦٢) الأنفال: ١٧.

الثالث: التهليل: بمعنى أنّه «لا مؤثر في الوجود إلّا الله»، كما أنّه «لا معبود غير الله»، وفي مناجاة سيّد الشهداء: «لا معبود سواك»، وبطبيعة الحال نصل إلى:

الرابع: التكبير: وهو يعني أنّ الله أكبر من أن يوصف، وهذا الذكر نكرّره في الصلاة كثيرًا.

والجدير بالتأمّل قول الإمام قدّس سرّه: ولعل التكبير في هذا المقام هو التكبير عن التحميد والتهليل، فتأمّل.

اكتمال الدائرة

رغم أنّ الصلاة هو معراج المؤمن إلى الأعلى، ولكن بالأخير لا محالة يرجع الإنسان إلى الأرض بقوله: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

بطبيعتنا نقول هنا: ثمّ ماذا؟ هل يعقل أن ينتهي السير في العبودية هكذا؟ فأين الرقي والعروج الّذي ينبغي أن يصل إليه العبد الّذي صلّى؟ وعلى حدّ تعبير العرفاء: أين قوس الصعود؟

أقول:

إنّ العروج لن يتمّ إلّا من خلال تسبيحات الزهراء عليها السلام، ذلك لأنّها على العكس من تسبيحات الصلاة؛ حيث تبدأ بالتكبير ثمّ التحميد ثمّ التسبيح، فهي إذًا الصلاة الصاعد، بل هو التهليل الصاعد، وبذلك تتم الدائرة وتكتمل، وبه تصبح التسبيحات من الذكر الكثير؛ لأنّ الدائرة الكاملة لا بداية لها ولا نهاية، وقد ورد في الحديث:

عن الصادق عليه السلام، أنّه سئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، ما هذا الذكر الكثير؟ قال: «من سبّح تسبيح فاطمة عليها السلام فقد ذكر الله الذكر الكثير»[٦٣]. وهذا تفسير لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[٦٤]. فبدونها كأنّ العبد قد توقّف في محطّة الأرض وبقي في محلّه.

سرّ مستودع

رغم أهمّيّة هذه التسبيحات ودورها الرئيس في العروج والرقي، فيا تُرى لِمَ لم تُدرج ضمن الصلاة، أعني بعد السلام مباشرة؟

هذا السؤال يتأتّى بالنسبة إلى طواف النساء في الحجّ أيضًا، فرغم أهمّيته لَم يُدرج ضمن الحجّ، بل يُؤتى به بعد اكتمال الأعمال!

إزاحة الستار

لو تأمّلت في أسماء الصدّيقة الزهراء عليها السلام لرأيت بأنّها جميعًا تبيّن لنا الجانب الجمالي فيها، وذلك لأنّها مظهر أتمّ للجمال الإلهي، بمعنى أنّنا بالنظر إليها نحمد الله جلّ جلاله ونوحّده ونكبّره.

فهي الحوراء، وهي الصدّيقة، وهي الطاهرة، وهي الزهراء، وهي الراضية، وهكذا سائر صفاتها وأسمائها الثبوتيّة.

فاطمة

ولكن هناك اسم واحد يتميّز عن سائر اسمائها، وفي نفس الوقت مخيّم عليها جميعا، وهذا الاسم هو تجلٍّ للجلال الإلهي، وبه يتمّ التسبيح، وهو «فاطمة».

٦٣) معاني الأخبار، ص١٩٣ ح٥.
٦٤) الأحزاب: ٤١ – ٤٢.

فقد ورد في الحديث المعروف: «أنّها فطمت شيعتها من النار»[٦٥]، أي: قطعتهم وأبعدتهم كما تَقطع الأمّ اللبنَ عن ولدها، وتبعده عنه قسرًا.

فلننظر إلى سرّ التسبيح من منظارين:

الأوّل: التسبيح من منظار الجلال:

فهي عليها السلام بصدد خلاص الشيعة من التورّط في العذاب الّذي ربّما يحلّ بهم بسبب بتر الصلاة والتقليل من شأنه! وذلك بشفاعة التسبيحات.

ولا نريد القول بأنّ صلاة غيرهم كاملة في حدّ نفسها إلّا أنّه ينقصها التسبيح! لا! بل لو غضضنا الطرف عن سائر الأركان والأذكار والمقدّمات في صلواتهم وقلنا بصحتها، إلّا أنّه لا جدوى فيها مادام لم يأتوا بتسبيحات فاطمة بالنيّة الصحيحة الّتي ستتّضح لك.

فاطمة قد فطمت شيعتها فقط من النار، وذلك بواسطة التسبيح الّذي يجعل أرواحهم تعود من حيث أتت لترجع إلى ربّها في السير الصعودي راضية مرضيّة تحت رعايتها، كالأمّ الحنون على أولادها.

الجدير بالذكر ما ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «من سبّح تسبيح الزهراء عليها السلام ثمّ استغفر غُفر له، وهي مائة باللسان، وألف في الميزان، وتطرد الشيطان، وتُرضي الرحمن»[٦٦].

والسبب في أنّه يطرد الشيطان هو ما ذكرنا من فاطميّة فاطمة الّتي تُبعد النار عن ساحة المؤمن، فالشيطان هو النار بعينه، وقد خُلق من النار أيضًا، فتأمّل.

الثاني: التسبيح من منظار الجمال:

وأمّا لو لاحظنا الجانب الجمالي للتسبيحات فنصل إلى نتائج كثيرة نذكر بعضها ضمن عناوين:

٦٥) معاني الأخبار، ص٣٩٦ ضمن ح٥٣.
٦٦) ثواب الأعمال، ص١٦٣.

الأوّل: الانطلاق من الولاية:

بالتسبيح يتمّ الدخول في الساحة الفاطميّة بعد السلام الأخير، علمًا بأنّ صلاة المؤمن بدأت بالولاية العلوّية، وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «... ولم يُنادَ بشيء ما نُوديَ بالولاية يوم الغدير»[٦٧].

فالتسبيحات في الحقيقة سرّ من أسرار الولاية، لا يدركه إلّا المؤمن البصير ذو الحظّ العظيم.

ولذلك أصبحت داخلة في الصلاة في حين أنّها خارجة عنها، هي في الحقيقة مكمّلة للصلاة.

ولذلك أكّد الفقهاء عملًا بأحاديث أهل البيت عليهم السلام على المباشرة بالتسبيح بعد الصلاة، أي: بعد التسليم مباشرة.

فقد ورد بسند صحيح عن الإمام الصادق عليه السلام: «من سبّح تسبيح فاطمة الزهراء قبل أن يثني رجليه من صلاة الفريضة غفر الله له، وليبدأ بالتكبير»[٦٨].

وأيضًا بسند صحيح عنه عليه السلام: «تسبيح فاطمة في كلّ يوم في دبر كلّ صلاة أحب إليَّ من صلاة ألف ركعة في كلّ يوم»[٦٩].

يقول الشيخ البهائي قدّس سرّه: ... وليَ ْنْ جلوسك في التعقيب متّصلًا بجلوسك في التشهّد وعلى تلك الهيئة من الاستقبال والتورُّك، واترك في أثنائه الكلام والتلفّت ونحوهما»[٧٠].

وأيضًا ينبغي الموالاة في التسبيح، أي: عدم الفصل والقطع بين الأذكار فروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه كان يسبّح تسبيح فاطمة عليها السلام فيَصِلُه ولا يقطعه[٧١].

وأيضًا ينبغي إتيانه بالتوجه والخشوع.

---

٦٧) الكافي، ج٢ ص٢١ ح٨.
٦٨) الكافي، ج٣ ص٣٤٢ ح٦.
٦٩) الكافي، ج٣ ص٣٤٣ ح١٥.
٧٠) مفتاح الفلاح، ص٦٦.
٧١) الكافي، ج٣ ص٣٤٢ ح١٢.

يقول الإمام الخميني - قدّس سرّه - عن الآداب القلبيّة لتسبيح فاطمة عليها السلام: يجب في تسبيح فاطمة أيضًا التبتّل والتضرّع والانقطاع والتذلّل في القلب[٧٢].

هذا، ولو نظرنا إلى أهمّيّة التسبيح واستحبابه بالسبحة المتّخذة من تربة سيّد الشهداء عليه السلام لتيقّنّا بأنّ الموضوع له علاقة بالعروج الروحاني في قوس الصعود، كيف! وقد ورد في شأن تربة الإمام الحسين عليه السلام، عن معاوية بن عمّار: كان لأبي عبد الله عليه السلام خريطةُ ديباجٍ صفراء، فيها تربة أبي عبد الله عليه السلام، فكان إذا حَضَرته الصلاة، صبَّه على سجّادته وسجد عليه، ثمّ قال: «السجود على تربة أبي عبد الله عليه السلام يخرق الحُجُبَ السَّبْع»[٧٣].

الثاني: هل تعلم بأنّ «الكوثر» إنّما هو في قبال «الأبتر»، وهو أمر شامل لكافّة الأمور من القِيَم والأشخاص والأشياء والأذكار والمواقف ومجمل الشريعة والعوالم ابتداء من الملكوت المطلق وانتهاء بالمُلك الوسيع، وأيضًا يشمل النشئات المستقبلية جميعها خصوصًا نشأة الدولة الحقّة المباركة، وأيضا نشأة القيامة حتّى الوصول إلى الجنّة ونعيمها.

فالكوثر - الّتي تعني الكثرة كمًّا وكيفًا - قد بسطت جناحَي الرحمة والشفقة والحنان والحبّ على جميع العوالم والنشئات من دون استثناء، فهي تحافظ عليها ولا تسمح للدخلاء أن يمسّوها بآفة ونقص، وبعبارة أخرى: «الكوثر هي الأمّ للخلق».

وهذا شامل للأنبياء بما فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله، والأوصياء والأئمّة عليهم السلام، وسائر الخلق.

والكوثر هي رحمة مميّزة جاءت مباشرة من الجنّة طاهرة مطهّرة زكيّة، وهي الأصل وكلّ شيء فرعٌ لها. فمن أجل الابتعاد والتخلص من كلّ شرّ ونقص، لا محيص إلّا معرفة الخير الكثير - أعني الكوثر - وحبّها الشديد، وذلك لأنّه: «على معرفتها دارت القرون الأولى»[٧٤].

---

٧٢) آداب الصلاة، ص٤٠٨.

٧٣) مصباح المتهجّد، ج٢ ص٧٣٣ - ٧٣٤.

٧٤) الأمالي (للطوسي)، ص٦٦٨ ح١٣٩٩ بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام.

الحبّ الشديد

ثبت روائيًّا وعرفانيًّا أنّ منشأ الإيجاد ومحور الخلق هو الحب لا غير، ولو تصوّرت هذا الأمر لأذعنت به فورًا؛ تصوّره كافٍ لحصول التصديق به.

فكلّ ما يصدر من الله تعالى من الخلق، بل حتّى أفعاله تعالى كلّها تنشأ من الحبّ الذاتي لنفسه الذي هو حبيب قلوب الصادقين.

هذا، ولو أنّك أحببت شيئًا يبدو لك جميلًا، مثل حبّ الولد والزوج والقبيلة والعشيرة وما شابه ذلك، بل حتّى المرارة إذا أحببتها تنقلب إلى الحلاوة، والألم يتبدّل إلى اللذّة.

وبما أنّ الله وحده يتّصف بجميع صفات الكمال بنحو مطلق، فحبه لنفسه ولمخلوقاته لا حدّ له، ومن أهمّ مصاديق هذا الحبّ هو «حبّ معرفته» بمعنى: أنّه يحبّ أن يعرف فيُعبد، لا لمصلحة له بل للعبد، فتأمّل.

ورد في الحديث القدسي: «كنت كنزًا مخفيًّا فأحببت أن أُعرَف، فخلقت الخلق لكي أعرف»[٧٥].

فإذًا الغاية في خلق جميع الخلائق هو أمر واحد لا ثاني له، وهو «المعرفة» الناشئة من الحبّ.

عزيزي:

أنت تسمع «المعرفة»، ولكن لو دخلت في عمق هذا المفهوم لعلمت ما لم تعلم من أسرار لا مثيل لها، فكلّ شيء يكمن وراء هذا المفهوم؛ لأنّ معرفة الله يعني اتّصال النفس بالكنز الخفيّ الشامل لجميع الكمالات، فهو تعالى غاية آمال العارفين.

فما دام أصبحت المعرفة محور الخلق، فالمفروض أن لا يخلق إلّا من يسعى لمعرفته، وفعلاً يصل إلى المعرفة الكاملة، وهم محمّد وآله الطاهرين، فهم يعرفون الله حقّ معرفته!

٧٥) بحار الأنوار، ج٨٤ ص١٩٩.

وهذا ما حدث!

فلم يخلق سبحانه غير الأربعة عشر معصوما عليهم السلام، وهم أنوار بعرشه محدقين، والمفروض أن ينحصر الخلق بهم وكفى!

ولكن الحبّ جعله يخلق سائر البشر! أعني من الحبّ هذه المرّة هو الّذي جرى وسرى في الأولياء عليهم السلام فأحبّ أن يتعرّف الناس على صنائعه المنحصرة في الإنسان الكامل وهم أهل البيت عليهم السلام ويباهي بهم المخلوقات.

ربّما تقول:

بأنّه تعالى قد خلق الملائكة من أجل معرفة أهل البيت، فقد تحقّق المطلوب.

فأقول:

ما دام قد سهل الأمر بسبب عروج أهل البيت عليهم السلام إلى قمّة المعرفة فقد سهل لسائر الناس أمر المعرفة نوعًا ما! فلماذا لا يخلق غيرهم من الناس ثمّ يطلب منهم معرفة أهل البيت عليهم السلام، وبذلك سوف يعرفوا خالقهم وبارئهم فيرتقوا إليه تعالى بسهوله لا بالأصالة بل بتبع محمّد وآله.

وبما أنّ هذا يطابق الحكمة - وهو الحكيم العليم - فلا بدّ أن يتحقّق، وهذا ما حدث!

خلق الناس من أجل المعرفة - أعني معرفة محمّد وآل محمّد - لأنّه بذلك يُعرف الله ويُعبد.

فبالنتيجة: هم كنز الله الخفي الّذي بهم يعرف الله، وبهم يعبد الله، كما ورد في الزيارة الجامعة: «حَفَظَةِ سِرِّ اللهِ، وَاخْتَارَكُمْ لِسِرِّهِ، ائْتَمَنَكُمْ عَلَى سِرِّهِ»[٧٦].

وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام: «خرج الحسين بن عليّ عليه السلام على أصحابه فقال: أيّها الناس، إن الله - جلّ ذكره - ما خلق العباد إلّا ليعرفوه، فإذا عرفوه

(٧٦) من لا يحضره الفقيه، ج٢ ص٦١٠.

عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه. فقال له رجل: يا ابن رسول الله، بأبي أنت وامّي، فما معرفة الله؟

قال عليه السلام: معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الّذي يجب عليهم طاعته»[٧٧].

وفي الزيارة: «من عرفهم فقد عرف الله، ومن جهلهم فقد جهل الله»[٧٨].

وفي الدعاء: «اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، أولي الأمر الّذين فرضتَ علينا طاعتهم، وعرّفتنا بذلك منزلتهم»[٧٩]، فالسبب في أنّ الله فرض علينا طاعتهم هو أن نتعرّف على منزلتهم، وبالنتيجة نعم الله سبحانه الّذي خلقهم.

عزيزي: تأمّل جيدًا ولا تمرّ على هذه الكلمات مرور الكرام؛ فإنّها الحكمة بعينها.

رجوعًا إلى الكوثر

ولكنّ الشيطان لم يسمح للإنسان أن يتعرّف على أهل البيت عليهم السلام؛ حيث وقف حجر عثرة أمامهم. لاحظ هذا التعبير:

﴿قَالَ فبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[٨٠].

يا ترى ماذا فعل؟

إنّه ستر أنوار أهل البيت عليهم السلام عن أعين الناس وقلوبهم من خلال إعانته لطواغيت زمانهم، فأصبح الأمر صعبًا؛ حيث تراكمت الشكوك والشبهات.

هذا ما كان يعلم به علّام الغيوب – جلّ وعلا – فخلق الصدّيقة الطاهرة عليها السلام

٧٧) علل الشرائع، ج١ ص٩ ح١.
٧٨) الكافي، ج٤ ص٥٧٩.
٧٩) المزار الكبير (لابن المشهدي)، ص٥٩١.
٨٠) الأعراف: ١٦ – ١٧.

قبل أن يخلقها؛ حيث نقلها من الجنّة! وبها تمّت الكلمة وظهرت البركة في جميع العوالم والنشئات، وذلك من خلال أمورٍ سهلة لا عناء فيها، أظهرُها هي: «تسبيحات الزهراء عليها السلام».

فاطمة الزهراء

اعلم أنّه قد برزت حقيقة التسبيح والحمد في هذا الاسم، أعني: «فاطمة الزهراء».

فلو نظرنا إلى الاسم من الزاوية الفاطميّة الّتي تعني إبعاد الظلمات بشتّى مصاديقها، فحينئذٍ سوف يكون من مصاديق التسبيح، وأمّا لو انطلقنا إلى النور الزاهرائي المتلألئ فتلقائيًّا نشاهد أنفسنا في ساحة التوحيد، وننادي بكلّ وجودنا: «الحمد لله» و «الله أكبر».

ولكن بما أنّ مشاهدة النور نشأ من التسبيح، لذلك أصبح اسم التسبيح هو الأصل في تسمية هذا الرزق الفاطمي.

اخلع نعليك

إنّ من مصاديق التسبيح ميدانيًّا هو ما ذكره القرآن الكريم في قصة موسى ووصوله إلى اللقاء؛ حيث قال سبحانه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[81].

وحين التدبّر في الآية نعرف أنّه بمجرّد خلع النعلين رأى موسى نفسه في الوادي المقدّس، وفي الحقيقة إنّ خلع النعلين كان سببًا لدخوله في تلك الساحة النورانيّة!

٨١) طه: ١٢.

ولذلك فُسِّر «خلع النعلين» بخلع محبّة غير الله، وهذا المعنى قد تطرّق إليه الإمام – قدّس سرّه – في كتبه المختلفة تفصيلًا، قال: «فهل يمكن الوصول إلى مقام نور القرب إلّا بخلع نعلَي الشهوة والغضب، وترك الهوى، والانقطاع إلى حضرة المولى»[٨٢]. واللطيف ما في العبارة التالية في بيان فضل أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «إنّ موسى في الميعاد خوطب بخطاب: فاخلع نعليك، وقد فُسِّر بمحبّة الأهل، والرسول الخاتم قد أمر في ميعاده بأن يحبّ عليًّا»[٨٣].

وهذا هو إشارة إلى الحديث المرويّ في كتاب الاحتجاج للطبرسي قدّس سرّه، فيه أسئلة يسأل السائل عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، إلى أن قال: ثمّ قلت: أخبرني يا ابن رسول الله عن قول الله تعالى لنبيّه موسى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، ... فأخبرني يا مولاي عن التأويل فيها.

قال: إنّ موسى عليه السلام كان بالوادي المقدّس، فقال: يا ربّ، إنّي أخلصتُ لك المحبّة منّي، وغسلت قلبي عمّن سواك – وكان شديد الحبّ لأهله –، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، أي: انزع حبّ أهلك من قلبك إن كانت محبّتك لي خالصة، وقلبك من الميل إلى من سواي مغسولًا»[٨٤].

أقول:

كما بيّنّا سابقًا ويستفاد من اسمها «فاطمة» – «لأنّها فَطَمَت شيعتها من النار»[٨٥] – إنّ جميع الشرور الّتي هي الظلمة بعينها تزول بمجيء فاطمة في الساحة، وبما أنّ منشأ الظلمات هي الأنانة الّتي هي في الحضيض «النعلين»، فبمجرّد خلعها يصبح الإنسان في الوادي المقدّس طوى.

٨٢) شرح دعاء السحر، ص١٥١.
٨٣) آداب الصلاة، ص١٩٨.
٨٤) الاحتجاج، ج٢ ص٤٦٣.
٨٥) معاني الأخبار، ص٣٩٦ ضمن ح٥٣.

إنّي كنت من الظالمين

وأيضًا قوله تعالى: ﴿...فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٨٦]، هي آية من الآيات الفاطميّة لها علاقة بالتسبيح، ونتيجة التسبيح هي: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[٨٧]، وقد ظهرت مباشرة وهي النجاة من الغمّ، فدخل يونس في عالم النور بعد ما تورط في الظلمة.

وعلى ضوء ما قلنا يمكننا معرفة عدد كبير من الأحاديث الّتي تبيّن لنا أسرار هذا الرزق الفاطمي العجيب.

تسبيح فاطمة عليها السلام

الأحاديث في تسبيح الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام كثيرة، وهي تدلّ على أهمّيّته ودوره في تكامل النفس ورقيّها وقربها إلى بارئها سبحانه وتعالى، نشير إلى عدد منها:

الأوّل: عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «ما عُبد الله بشيء من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة، ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام»[٨٨].

يستفاد من الحديث ما يلي:

١- أنّ تسبيح فاطمة عليها السلام هو عبادة ذات فضيلة، وهي أفضل من سائر العبادات المستحبّة، وهذا يعني أنّ بها يُتقرّب إلى الله تعالى، وهذا يعزّز ما شرحنا من أن العروج إلى الأعلى يتمّ بالتسبيحات، ولذلك قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٨٩]؛ لأنّ الانطلاق إلى «قاب قوسين» يتمّ بالتسبيح.

٨٦) الأنبياء: ٨٧.
٨٧) الأنبياء: ٨٨.
٨٨) الكافي، ج٣ ص٣٤٣ ح١٤.
٨٩) الإسراء: ١.

٢- إن الّذي يتعالى ويرتفع به المؤمن هو التحميد، ولكن لا محيص إلى الدخول في الساحة الفاطميّة من أجل الوصول إلى هذا المقام.

٣- إنّ التسبيح - أعني «الأذكار الثلاثة» - هو نِحلة - بالكسر - وهي نوع من الهبة والعطاء بلا مطالبة واستعواض، ولو تأمّلت في الحديث لعلمت بأنّه تفسير لسورة الكوثر، تدبّر فيها تعرف؛

قال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[٩٠]، فهو نحلة للرسول صلى الله عليه وآله. ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[٩١]، فلا حاجة للعوض، بل عوضه هو الصلاة الّتي هي قرة عين الرسول، وأمّا النحر فلا علاقة له بالكوثر، بل دوره القضاء على الحسّاد ممّن هو ناوين على الكوثر وأبيها الضرّ، ولذلك قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[٩٢].

٤- لو تتأمّل في النحلة هنا وتقايسها بفدك - الّذي هو أيضًا نحلة - لاكتشفت الكُفْوِيَّة بين فاطمة عليها السلام وبين عليّ أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنّ فدك في الحقيقة هو رمز للولاية العلوية.

وأمّا الأدلّة والشواهد الدالّة على أنّ فدك لم يكن إرثًا بل هو نحلة، فكثيرة: أهمّها وأوضحها ما صرّحت بها سيّدة نساء العالمين عليها السلام في قولها مخاطبة أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا بن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل، فخانتك ريش الأعزل، هذا ابن أبي قحافة قد ابتزّني نُحَيلة أبي وبُلَيغة ابني»[٩٣]، انتهى.

الثاني: عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «يا أبا هارون، إنّا نأمر صبياننا بتسبيح فاطمة عليها السلام كما نأمرهم بالصلاة، فالزمه، فإنّه لم يلزمه عبد فشقي»[٩٤].

---

٩٠) الكوثر: ١.
٩١) الكوثر: ٢.
٩٢) الكوثر: ٣.
٩٣) مناقب آل أبي طالب، ج٢ ص٢٠٨.
٩٤) الكافي، ج٣ ص٣٤٣ ح١٣.

تأ ّل في الحديث، يقول الإمام: «نأمرهم»، فكأنّه أمر واجب بحيث تركه يورث الشقاء.

الثالث: عن الصادق عليه السلام أيضًا، أنّه سئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿اذْ ُكرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، ما هذا الذكر الكثير؟ قال: «من سبّح تسبيح فاطمة عليها السلام فقد ذكر الله الذكر الكثير»[٩٥].

والكثرة فيها كالكثرة في الكوثر، هي كثرة من ناحية الكيفيّة - أعني: الفضل - لا من حيث الكمّيّة، فهي عليها السلام لم تلبث في الدنيا كثيرًا، ولكن أصبحت بركاتها شاملة لأهل السماوات والأرض من الأوّلين والآخرين.

الرابع: عنه عليه السلام أيضًا: «من بات على تسبيح فاطمة عليها السلام كان من ﴿الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾»[٩٦].

هذا الحديث تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٩٧].

ولا يخفى عليك أنّها في سياق آية التطهير الّتي نزلت في شأن أهل البيت عليهم السلام ومنزلتهم عامّة، وفي مرتبة فاطمة عليها السلام خاصّة، كما وضحنا ذلك في محلّه.

قال الإمام الخميني قدّس سرّه: يعتبر تسبيح الزهراء عليها السلام من أفضل تعقيبات الصلاة ويستحسن المداومة عليه بعد الصلاة الواجبة وقبيل النوم، وقبل زيارة الأئمّة المعصومين عليهم السلام، وكذا يستحسن الاجتناب عن تركه والمسامحة فيه، ولا شك في لزوم الخشوع عند إتيانه، انتهى.

---

٩٥) معاني الأخبار، ص١٩٣ ح٥.
٩٦) تفسير مجمع البيان، ج٨ ص٥٦١.
٩٧) الأحزاب: ٣٥.

قصة التسبيح

ثمّ اعلم: أنّ ما ورد في القصّة المعروفة المنقولة عن أمير المؤمنين عليه السلام يبّن فيها السبب في نزول تسبيح فاطمة عليها السلام - من أنّهما طلبا خادمًا في البيت، فقال صلى الله عليه وآله: «أفلا أعلّمكما ما هو خير لكما من الخادم»[٩٨]، فأهدى إليهما هذا التسبيح - لا يمكن التعويل عليه وجعله محورًا لهذه الهدّية العظيمة والنحلة المباركة، والأفضل أن نقول: إنّها ذريعة لهذه النعمة، وهذا يتأتّى في القرآن أيضًا، فلا تظنّنّ أنّ شأن نزول الآيات هي علّةٌ تامة لنزولها بحيث لولا تلك الحادثة لما نزلت الآية! بل هي ذريعة بسيطة لا غير، كيف وقد نزل القرآن بأجمعه في ليلة واحدة على قلب الرسول صلى الله عليه وآله!

فالمناسبة هي مجرّد تبرير للحديث؛ لئلّا يقال أنّ الرسول صلى الله عليه وآله قد ابتدر بكلام لا محل له ولا مقام، ولكلّ مقام مقال، فتأمل.

آتنا غداءنا

ولا نخيّب ظنّ من اعتمد على قصّة النصب والإرهاق والتعب الّتي عانتها بنت النبيّ صلى الله عليه وآله، فنقول:

إيّاك وأن تكون نظرتك إلى مثل هذه الأمور سطحيّة بسيطة، بل ينبغي لك النظر إليها بعين البصيرة والاعتبار، وهل عانت طائفة من الطوائف - على كثرتها - ما عانتها الطائفة الحقّة من نصب وتعب وغصب وتجويع وتقتيل وتمثيل وتشريد في البلاد من يوم تأسيسها في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله إلى هذا اليوم، ولا أظنّ أنّ هذا الأمر يتطلّب دليلًا، بل الأدلّة وصلت إلى حد بحيث لا مجال لأن يشكّ أحدٌ في مظلوميّتهم أبدا، فكلّ من يلقي نظرة إلى قبور أئمّة أهل البيت عليهم السلام وأولادهم وأتباعهم يُدرك شدّة الظلم الذي عانوه.

٩٨) علل الشرائع، ج٢ ص٣٦٦ ح١.

فهل من المعقول أن لا يصل إلينا نحن الشيعة غداؤنا بعد أن لقينا من سفرنا هذا نصبًا، فلسان حال الموالين لسيّدة نساءالعالمين - في كلّ مكان وزمان - هو:

يا محمّد المصطفى، ويا حبيبة قلبه وقرّة عينه وثمرة فؤاده، ويا وليّ الله وخليفته، نلتمسكم إرواء غليلنا بالنظر إلينا: ﴿...آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾[٩٩]، نريدها سهلة هنيئة مريئة بسيطة، ولكنّها ثقيلة تأخذ بنا إلى جنّة الفردوس في طرفة عين! نعم هذا ما حصل:

تأمّل في هذه الأحاديث الثلاثة:

الأوّل: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «التسبيح نصف الميزان، والحمد لله يملأ الميزان، والله أكبر يملأ ما بين السماء والأرض»[١٠٠].

الثاني: قال الإمام الباقر عليه السلام: «من سبّح تسبيح الزهراء عليها السلام ثمّ استغفر غُفر له، وهي مائة باللسان، وألف في الميزان، وتطرد الشيطان، وتُرضي الرحمن»[١٠١].

الثالث: قال الإمام الصادق عليه السلام: «من سبّح تسبيح فاطمة في دبر المكتوبة من قبل أن يبسط رجليه، أوجب الله له الجنّة»[١٠٢].

فرجعناك إلى أمّك

ما دام قد صفّيت قلبك وطهّرت باطنك وزكّيت روعك، إذًا تعال معي لنتلو آياتٍ طالما قرأتها من قبل، ولكن أريدك هذه المرّة أن تتجاوز كلماتها بجعلها منصّةً للانطلاق نحو المعاني الرفيعة، وخذها منّي كحسن ختام للحديث عن الرزق الفاطمي.

٩٩) الكهف: ٦٢.
١٠٠) الكافي، ج٢ ص٥٠٦ ح٣.
١٠١) ثواب الأعمال، ص١٦٣.
١٠٢) فلاح السائل (لابن طاوس)، ص١٦٥.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[١٠٣].

يا ترى أين هذه المة، وما هي مصاديقها؟ أقول هي: ﴿أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ ﴿لِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾ ﴿اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾.

كلّها آيات ينبغي ملاحظتها كمعاني مخيّمة علينا نحن أيضًا، لا أقول بالأصالة بل تبع أهل البيت عليهم السلام، فكلّ هذه المفاهيم قد اتّصفوا بها عليهم السلام في أعلى مراتبها، فلِمَ لا تشملنا نحن شيعتهم ومحبّيهم؟

أقول بكلّ جرأة وصراحة: أنت أيضًا من مصاديق هذه المنن الأربعة؛ لأنّ الله قد منّ عليك بالرسول صلى الله عليه وآله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[١٠٤]، وسوف يمنّ عليك في مرتبة أعلى حيث ظهور هذه النعمات وتشعشع أنوارها: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[١٠٥].

ولكنّ الشأن كلّ الشأن في قوله: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾، تلاحظ هنا الضمير المتكلم مع الغير «نا» بعد أن كان الضمير في ﴿أَلْقَيْتُ﴾ و ﴿لِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ غير ذلك!

هذا إن دلّ على شيء فيدلّ على أنّك يا موسى لا محالة سترجع إلى أمّك، وهناك من يتكل بهذا الأمر من جنود الرحمن!

---

١٠٣) طه: ٣٧ – ٤١.
١٠٤) آل عمران: ١٦٤.
١٠٥) القصص: ٥.

أمّ أبيها

ولا أشكّ أنّني قد حيّرتك في هذا الحديث، كلّا! إنّها حقيقة خذها واغتنمها!

كما قلت في البداية: إنّها آية إلهيّة، وليست كلمات كتابيّة، إنّها تنطبق على «الأمّ» بما للكلمة من معنى، أعني: أمّ الخلق أجمع، أمّ الأنبياء والمرسلين والأولياء، أمّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام، بل أمّ أبيها!! وهي أمّنا جميعًا.

لا بد وأن نرجع إليها في نشأتين:

في نشأة الظهور والرجعة، فينطبق الضمير - أعني: «نا» - على مهديّ الأمّة قائم آل محمد، ومن بعده على أجداده الطاهرين عليهم السلام.

وفي نشأة القيامة والآخرة، وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المجال، نكتفي بأهمّ حديثين:

الحديث الأوّل: عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال جابر لأبي جعفر عليه السلام: جُعلت فداك يا ابن رسول الله، حدّثني بحديث في فضل جدّتك فاطمة، إذا أنا حدّثت به الشيعة فرحوا بذلك.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «حدّثني أبي، عن جدّي، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: إذا كان يوم القيامة تُنصب للأنبياء والرسل منابر من نور، فيكون منبري أعلى منابرهم يوم القيامة، إلى أن قال:

ثمّ ينادي المنادي وهو جبرئيل: أين فاطمة بنت محمد؟ فتقوم ...، فيقول الله تبارك وتعالى: يا أهل الجمع، لمن الكرم اليوم؟ فيقول محمّد وعليّ والحسن والحسين عليهم السلام: لله الواحد القهّار.

فيقول الله تعالى: يا أهل الجمع، إنّي قد جعلتُ الكرم لمحمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين. يا أهل الجمع، طأطئوا الرؤوس، وغضّوا الأبصار، فإنّ هذه فاطمة تسير إلى الجنّة ... حتّى يصيّروها على باب الجنّة، فإذا صارت عند باب الجنّة تلتفت، فيقول الله: يا بنت حبيبي، ما التفاتك وقد أمرتُ بك إلى جنّتي؟.

فتقول: يا ربّ، أحببتُ أن يُعرف قدري في مثل هذا اليوم! فيقول الله: يا بنت حبيبي، ارجعي فانظري مَن كان في قلبه حبّ لكِ أو لأحد من ذرّيّتك، خُذي بيده فأدخليه الجنة!

قال أبو جعفر عليه السلام: والله يا جابر، إنّها ذلك اليوم لتلتقط شيعتها ومحبّيها، كما يلتقط الطير الحبّ الجيّد من الحبّ الرديّ، الحديث»[١٠٦].

الحديث الثاني: عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا كان يوم القيامة تُقبل ابنتي فاطمة على ناقة من نوق الجنّة، إلى أن قال:

فتقول: إلهي وسيّدي، ذرّيّتي وشيعتي وشيعة ذرّيّتي، ومحبّيَّ، ومحبّي ذرّيّتي.

فإذا النداء من قِبَل الله جلّ جلاله: أين ذرّيّة فاطمة وشيعتها ومحبّوها ومحبّو ذرّيّتها؟ فيُقبلون وقد أحاط بهم ملائكة الرحمة، فتقدمهم فاطمة عليها السلام حتّى تُدخِلَهم الجنّة»[١٠٧].

عزيزي العاشق

هلّا تأمّلت في قوله تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، فالسرّ في إرجاع موسى إلى أمّه يكمن في أمرين، كلاهما راجعان إلى «الأمّ» لا «الابن»، تأمّل.

هكذا هي أمّنا فاطمة عليها السلام! فكلّ ما تُعطَى من فضائل - وعلى قمّتها الشفاعة - فهي من أجل أن ترضى هي، والله يرضى لرضاها! بل فلسفة وجودها هي الرضا.

ويفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[١٠٨] أنّ رضا أبيها محمّد صلى الله عليه وآله أيضًا يترشّح من رضا الأمّ فاطمة عليها السلام؛ لأنّها الكوثر ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[١٠٩].

١٠٦) تفسير فرات الكوفي، ص٢٩٨ - ٢٩٩.
١٠٧) الأمالي (للصدوق)، ص١٧ ح٤.
١٠٨) الضحى: ٥.
١٠٩) الكوثر: ١.

ولا تناقشني في هذه الكلمة، فهي الحقّ بعينه:

لا يدخل أحدٌ من الخلق الجنّةَ - حتّى الأنبياء أولي العزم، وحتّى الأئمّة المعصومين عليهم السلام، ناهيك عن غيرهم - إلّا خلف سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين فاطمة عليها السلام، فلا تغفل.

نصيحة لأخوتي وأخواتي في الله

* ينبغي أن يكون جلّ اهتمامنا في الحياة الدنيا منصبا في معرفة الزهراء عليها السلام.

* ينبغي أن نعيش الانتظار - أعني: انتظار الإمام المهدي وأهل البيت عليهم السلام - من أجل أن يعرّفونا على الأمّ، ويأخذوا بأيدينا إليها.

* ينبغي أن نبتعد عن كلّ الذنوب - صغيرة وكبيرة - فنصفّي نفوسنا ونروّضها على الخير؛ كي تستقبلنا الأمّ الحنون.

* ونحن في عصر الغيبة حيث النصب والشدّة ينبغي أن نجعل هذه الجملة من الآية - أعني: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾ - نصب أعيننا ونكرّرها، ولا نغفل عنها طرفة عين، ونترقّبها عليها السلام أن تطعمنا من الأرزاق الخاصّة في قنوتنا أو ركوعنا أو سجودنا، وحينما نستمع ونقرأ ونتابع فضائلها ووجودها النوراني.

* شهر رجب المرجّب هو شهر ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾.

* التقوى التقوى التقوى، الأخلاق الأخلاق الأخلاق، مراعاة الموازين الشرعيّة، ترك الدنيا، المعرفة المعرفة المعرفة.

إلهنا منّ علينا في الأشهر الثلاثة بمجيء صاحب الأمر عجّل الله فرجه، والأخذ بأيدينا وإرجاعنا إلى أمّنا الزهراء؛ كي تقرّ عينها ولا تحزن.

العبد / إبراهيم الأنصاري البحراني

الفهرس

إلهام فاطمي ٢
من الجنّة إلى الدنيا ٢
الرزق في الدنيا ٣
الرزق في البرزخ ٦
الرزق في جنّة الظهور، وفي الرجعة ٧
الرزق في القيامة والجنّة ٩
رزق معلوم ٩
كرّمنا بني آدم ١٠
في السماء رزقكم ١١
تعريف الرزق ١٢
مفهوم التسبيح ١٣
المخلَصون ١٤
المسبّحون ١٥
حقيقة التسبيح ١٦
جريان النور ١٧
قوس النزول والصعود ١٧
التسبيحات الأربعة ١٨
اكتمال الدائرة ١٩
سرّ مستودع ٢٠
إزاحة الستار ٢٠
فاطمة ٢٠
الحبّ الشديد ٢٤
رجوعًا إلى الكوثر ٢٦
فاطمة الزهراء ٢٧
اخلع نعليك ٢٧
إنّي كنت من الظالمين ٢٩
تسبيح فاطمة عليها السلام ٢٩
قصة التسبيح ٣٢
آتنا غداءنا ٣٢
فرجعناك إلى أمّك ٣٣
أمّ أبيها ٣٥